

## الباب الثالث

### أصول الجاهلية كما فى الحديث النبوى

وردت فى أحاديث النبى ﷺ كلمات عن الجاهلية ذكر فيها أوصافها وأحوالها منها ما مدحها النبى وذكرها بخير كمكارم الأخلاق ، ومنها ما ذمها وأبطلها . أما ما ذمها النبى فتتلخص فى الأمور الآتية :-

التفرقة العنصرية وعدم الرضا بقضاء الله واعتقاد التأثير لما لا تأثير له على الكون . والحديث الآتى يشمل تلك الأصول الأربعة وهو قوله ﷺ :

« أربعة فى أمتى من أمر الجاهلية :

الفخر بالأنساب والطعن فى الأحساب . والنياحة على الميت والاستسقاء بالنجوم » متفق عليه .

الأول والثانى : هما الفخر بالأنساب والطعن فى

الأحساب .

النسب : ما يميز الإنسان عن غيره من أب وأم وحى وقبيل وبلد .

الحسب : هو الشرف الثابت للإنسان أو لأبائه أو ما يعد له من المآثر والمناقب وعليه قول الشاعر :

ومن كان ذا نسب كريم ولم يكن له حسب كان اللئيم المذمما

كان العرب في الجاهلية يتفاخرون بأحسابهم وأنسابهم ويطعنون في أنساب غيرهم . لذلك كانوا يحفظون الأنساب ومآثر الأجداد للتفاخر بها خصوصاً على ألسنة الشعراء في الأسواق كما كانوا يفعلون في عكاظ وذى الحجاز ومنى .

فجاء القرآن ينهاهم عن ذلك ويقول في النهي عن الفخر بالحسب : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٨٨] ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٣] .

ويقول في النهي عن الطعن في الأنساب : ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : ١١] .

أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: كان المشركون يجلسون في الحج فيذكرون أيام آبائهم وما يعدون من أنسابهم يومهم أجمع فأنزل الله على رسوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ويلحق بهذا أحاديث أخرى كثيرة منها، ما رواه أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى، وفاجر شقى، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بآبائهم إنما هم فحم من جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بآنفها النتن».

ومنها ما رواه الشيخان عن أبي ذر رضى الله عنه قال: سببت رجلاً (وهو بلال) فعيرته بأمه (يا ابن السوداء) فقال لى النبي ﷺ: «يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية».

قال أبو ذر: أعلى كبر سننى يا رسول الله؟ قال: «نعم، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت

يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم  
فإن كلفتموهم فأعينوهم» .

ومعنى قوله : إنك امرؤ فيك جاهلية، بمعنى بقى فيك خلق  
من أخلاق الجاهلية، وهو الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب،  
وفى رواية « ما كنت أحسب أنه بقى فى صدرك من كبر الجاهلية  
شئ »، فألقى أبو ذر نفسه إلى الأرض ثم وضع خده على التراب  
وقال : والله لا أرفع خدى منها حتى يظأ بلال خدى بقدميه،  
ولم يزل به حتى وطئ بلال خده بقدميه تكفيراً لذنبه .  
فيا لإيمان الرعيل الأول من المسلمين . ومنها ما روى الحافظ ابن  
عساكر قال :

جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي،  
وصهيب الرومي، وبلال الحبشي فقال : هؤلاء الأوس والخزرج  
قد قاموا بنصرة هذا الرجل ( يعنى النبي ﷺ ) فما بال هذا  
وهذا ( مشيراً إلى غير العرب من الجالسين ) فقام إليه معاذ بن جبل  
رضى الله عنه ، فأخذ بتلابيبه، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره  
بمقاله .

فقام النبي ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد، ثم نودى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخطبهم قائلاً: «يا أيها الناس إن الرب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي».

وفي عهد سيدنا عمر تفاخر قوم أمام سلمان الفارسي بأنسابهم، هذا يقول أنا ابن فلان ابن فلان وهذا يقول أنا ابن فلان ابن فلان وسلمان صامت لا يتكلم حتى قال له أحدهم ابن من أنت؟ فقال سلمان أنا ابن الإسلام ثم أضاف منشداً:

أبي الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

فبلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فبكى من فرط تأثره بهذه الكلمة وقال: وأنا أباي الإسلام، وكررها ثلاثاً.

الأصل الثالث من أصول الجاهلية :

## النياحة على الميت

كانت نساء العرب فى الجاهلية يبكين بالصراخ والعيويل ويدعون على أنفسهن بالويل والثبور نحو : واجبلاه واسنداه إذا مات لهن زوج أو أخ أو أب أو قريب ويحلقن رؤوسهن ويشققن جيوبهن ويلبسن أسوأ ثيابهن وينشرن شعورهن، فهى الإسلام عنها وسمها دعوى الجاهلية ، وفى القرآن :

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٣] .

ويقول الحديث : « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » متفق عليه .

وجاء أيضاً عن أبى موسى الأشعرى « أن رسول الله برئ من الصالقة والحالقة والشاقة » وفى أبى داود قالت إحدى النساء المبايعات « كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ أن لا نعصيه فى معروف وأن لا نخمش وجهها ولا ندعو ويلا ولا نشق جيباً ولا ننشر شعراً » .

المآثم من النياحة :

كان الناس يجتمعون على أهل الميت للتعزية فيجالسهم

أياماً وليالي، ولا ينصرفون إلى حوائجهم ، فيقوم أهل الميت بواجب الضيافة من تقديم الطعام للمعزين فيزيدونهم مصيبة على مصيبة ويجددون لهم الحزن ويكلفونهم المؤونة، ولهذا جاء في الحديث عن جرير يقول: « كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنيعة الطعام بعد دفنه من النياحة ». رواه أحمد .

### إحداد الرجال والنساء على الميت من النياحة :

كانت المرأة في الجاهلية إذا توفى عنها زوجها دخلت بيتاً صغيراً حقيراً ولبست شربابها ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة ، ثم يؤتى لها بدابة من حمار أو شاة أو طير فتمسح به فرجها . وربما ماتت الدابة في وقتها . ثم تخرج فتعطى بعة فترمى بها ثم تراجع ما شاءت من زينة ، ويوجد مثل ذلك في جاهلية غرب إفريقيا إلى عهد بعيد .

ولما جاء الإسلام وأبطل تلك التقاليد وأبقى ما في الإحداد من أمارات الرحمة والوفاء بين الزوجين، وفرض العدة على المرأة ليتم به براءة الرحم .

وحرم على النساء الإحداد لموت أحد فوق ثلاثة أيام غير

الزوج الذى عليها أن تحد عنه أربعة أشهر وعشراً. وعلى ذلك يسير المسلمون فى كل مكان .

حتى دخلت التقاليد الغربية إلى العالم الإسلامى وإلى نيجيريا، فصارت المرأة تلبس السواد طول السنة أو نصف السنة إعلاناً على الناس بأنها أرملة مات عنها زوجها. وذلك من تقاليد الجاهلية الثانية الواردة إلينا من البلاد الغربية المسيحية .

### وصول أجر الصدقة وأثر الدعاء للميت :

اعتاد المسلمون فى نيجيريا وما حولها أن يجتمعوا للدعاء للميت وأن يتصدقوا له على الفقراء والمساكين وإهداء ثوابها للميت .

وربما بدأوا ذلك من يوم الوفاة حتى اليوم الثالث أو اليوم السابع، ويتأولون ذلك بأنه ليستدرك الدعاء من فاتته الجنازة من البعداء .

### فانقسم العلماء فى الأمر إلى قسمين :

قسم يمنعه ويحرمه ، ومنهم فى هذا العصر : الشيخ المختار

ساليكوتو في مدينة إلورن، والشيخ صلاح الدين اللناسي في إبادن، والشيخ كمال الدين الهادي الألوري .

وقسم يجيزه منهم أكثر علماء إلورن وإبان ويحتجون بالأدلة

التالية :

أولاً : قالوا إنه لا شك في أن الميت ينتفع بعمل الأحياء إن كان صالحاً، كما يتضرر به إن كان بكاءً أو فساداً ، وصح أن الميت ليعذب بكاء الأحياء عليه .

ثانياً : قالوا بأنه فيما ورد من الحديث القائل : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» .

وأن النبي ﷺ قال : «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل» .

ثالثاً : قالوا لولا أن الميت ينتفع بعمل الأحياء لما شرعت صلاة الجنائز ورددوا استدلال قوم بأن الآية ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى \* ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾

[النجم : ٣٩ - ٤١]

فهذا دليل على أن الميت لا ينتفع بعمل الأحياء .

قالوا : إن الآية صريحة في الكافر الصريح . أما المؤمن فإنه

ينتفع بدعاء إخوانه المؤمنين لقوله تعالى حكاية عن المؤمنين :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾

[الحشر : ١٠]

ولأن الله أمر الولد أن يدعو لوالديه : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا

كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٤] .

وفي حديث دعاء زيارة القبور : « السلام عليكم يا أهل

القبور يغفر الله لنا ولكم أنتم سلفنا ونحن بالآثر » رواه الترمذى .

ما جاء فى إطعام أهل الميت لوصول ثوابه إليه :

جاء فى كتاب « صفوة التصوف » للحافظ المقدسى بالقرن

الخامس، قال : فيما يسمونه العرس وذلك لأحد أمرين (١) :

أحدهما : تخفيف ما ألم بالناس من الحزن .

وثانيهما : إيصال أجر الصدقة للميت فى حال الغربة

لينتفع به عند سؤال القبر . عن سفيان بن عيينة قال :

( ١ ) وقد انتقده ابن الجوزى فى تلبيس إبليس، وقال : إنه لا يحتج به كما

انتقد طعام العرس، هذا وإليه أميل .

حدثنا جعفر عن أبيه عن عبد الله بن جعفر قال : لما جاء نعى جعفر قال النبي : « اصنعوا لآل جعفر طعاماً فإنه أتاهم أمر يشغلهم أو أتاهم ما يشغلهم » (متفق عليه) (١) .

وقال أيضاً : إنه ورد عن رسول الله ﷺ : « أسرع صدقة تصعد إلى السماء أن يصنع الرجل طعاماً طيباً ثم يدعو إليه ناساً من إخوانه » .

ثم استشهدوا بما يروى عن سعد بن عباد أنه قال : « يا رسول الله إن أم سعد ماتت ، فأى صدقة أفضل ؟ قال : الماء ، فحفر بئراً ، وقال : هذه لأم سعد » .

وبما ورد عن النبي ﷺ أنه قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » .

وبما جاء في صفة التصوف للمقدسى عن خارجة بن زيد ابن ثابت أنه قال : « توفي أبي قبل أن تصفر الشمس وكان من رأيي دفنه قبل أن أصبح ، فجاءت الأنصار فقالت : لا تدفن

( ١ ) إن هذا الحديث لا يؤيد إطعام أهل الميت للزوار بل إطعام الجيران لأهل الميت .

إلا نهاراً ليجتمع الناس، فسمع مروان الأصوات فأقبل يمشى حتى دخل على فقال: عزيمة منى أن لا يدفن حتى يصبح فلما أصبحنا غسلناه ثلاثاً الأولى بالماء، والثانية بالماء والصدر، والثالثة بالماء والكافور، وكفناه في ثلاثة أثواب: أحدها برد كان كساه إياه معاوية فصلينا عليه بعد طلوع الشمس وصلى عليه مروان ابن الحكم، وأرسل مروان بحور (البقر) فنحرت وأطعم الناس وغلبنا النساء فبكين ثلاثاً.

ثم احتج المؤيدون لهذا المذهب بما روى مسلم عن عمرو ابن العاص قال: إذا دفنتموني فأقيموا حول قبري قدر ما تنحرجزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأعلم ما أراجع به رسل ربي».

ومنها ما أخرجه النسائي في باب الصيام والصلاة عن الغير قال: «لا يصوم أحد عن أحد ولا يصلى أحد عن أحد ولكن يطعم عنه».

وما جاء عن عائشة رضی الله عنها قالت: «لا تصوموا عن موتاكم وأطعموا عنهم».

اعتمد هذا الفريق على هذه الأحاديث جملة وما يشاكلها، كما اعتمدوا على استحباب التصدق بالطعام على الفقراء من بعد الدفن كل يوم حتى سبعة أيام لينتفع الميت بالصدقة عند مراجعة سؤال القبر، بما رواه السيوطي في «التثبيت عند التبييت» من قوله:

يكرر السؤال للأنام	فيما رروا في سبعة أيام
كذا رواه أحمد بن حنبل	في الزهد عن طاووس الحبر العلي
وبعده أبو نعيم خرجته	في حلية فيا لها من درجة
إسناده قد صح وهو مرسل	وقد يرى من جهة يتصل
وحكمه الرفع كما قد قالوا	إذ ليس للراوى به مجال
وفيه إن قد كانت الصحابه	يرون إطعاماً له استحبابه
في طول تلك السبعة الأيام	معونة في ذلك المقام
ومثل هذا جاء عن مجاهد	فيا له من عاضد وشاهد

ويضيفون إلى ذلك ما جاء عن ابن القيم في المسألة الخامسة عشر من كتاب الروح حيث قال (١) : إن الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك ثم تسرح بعد ذلك

(١) كتاب الروح المنسوب إلى ابن القيم فيه أشياء ينبغي التأنى والتثبت عند نقلها وروايتها.

حيث شاءت، وفي الخلية لأبى نعيم عن عبد الله بن أحمد ابن حنبل عن هاشم عن سفيان بن عيينة أنه قال : قال طاووس : «إن الموتى يفتنون في قبورهم سبعاً فكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام» .

هذه حجج الذين يؤيدون التصديق للميت من يوم الدفن حتى اليوم السابع، حيث يجتمع العلماء للدعاء الختامي كاجتماعهم ليوم الدفن .

ولكن الأمر قد تسرب إليه الفساد واستفحل حتى عجز العلماء عن إيقافه وإصلاحه خصوصاً في بلاد يوربا، لذلك قام الوعاظ بمنعه وتحريمه لأنه انقلب إلى وليمة في بلاد يوربا .

\* \* \*

### اجتماع الدعاء للميت يوم سابع الوفاة

ذلك أن المسلم إذا مات عن بنين كانوا يحضرون شهوداً ويحضر الإمام وجماعته لتجهيزه والصلاة عليه ودفنه ثم يجلسون للتعزية وللوعظ والتذكير بأن هذا سيكون حتماً عاقبة كل أحد، ويقولون : ﴿ لِمَثَلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصفات : ٦١] .

ثم يقولون استغفروا لأخيكم فإنه الآن يسأل وسلوا له التثبيت وتصدقوا له، ومن هنا يقوم أفراد العائلة والأسرة والمعارف والأصدقاء بتقديم ما يتيسر لكل واحد إلى الإمام وجماعته فيأمر الإمام الجماعة بقراءة يس، أو تبارك أو شيء من القرآن أو القرآن كله أو الذكر بعدد من كلمة الشهادة ويهبون ثوابها وثواب الصدقات إلى الميت، فيوزع هذه الصدقات على الفقراء في المجلس، هكذا بدأ الأمر بالتدرج.

ثم يصنع أقارب الميت الطعام كل يوم يرسلون به إلى الفقراء في المساجد والزوايا والمدارس، حتى اليوم السابع فيعود الإمام وجماعته للدعاء للميت كالיום الأول.

هذه هي الحالة الشائعة في بلاد يوريا وما يجاورها من بلاد غرب إفريقيا، ثم انقلب الأمر من سيئ إلى أسوأ حيث تسربت إليه الجاهلية الأولى المنتشرة بين الكفار قبل انتشار الإسلام.

ويجب على الدعاة أن يحاربوا هذه الجاهلية الثانية كل المحاربة لأنها اليوم أكثر انتشاراً في الأوساط الإسلامية اليورباوية.

## الجنابة كالوليمة في بلاد يوربا

وهي من رواسب الجاهلية الأولى التي تسربت إلى الأوساط الإسلامية من جراء احتكاكهم واختلاطهم بالوثنيين والنصارى لأن أهل الأديان الثلاثة كانوا يتداخلون فيما بينهم في الأسرة الواحدة ويختلطون في السوق والمعمل والبلد والشارع ، وحاصله أن تشييع المسافر عادة متأصلة في نفوس أهل بلاد يوربا كاستقباله بموكب عظيم حسب مكانته الاجتماعية .

وكان موتى ملوك يوربا القدماء يشيعون إلى مقابرهم في مواكب وحفلات، كما يقام لهم ذلك في حياتهم ومراسم توليتهم مثل ما في تقاليد الفراعنة المصريين، وإذا مات ملك من الملوك هياً خلفه أو ابنه له عدداً من ضحايا الأبقار والأغنام لتكون له زاداً إلى العام الثاني .

وذلك أيضاً يشبه ما كانت العرب تفعله في الجاهلية من العقر حيث إنهم كانوا ينحرون على قبور الموتى ويقولون إنه كان يعقرها للأضياف في حياته، فكافئه بذلك بعد الموت أو مثل ما يذبح أمام النعش فجاء الإسلام ببطلان ذلك وقال النبي ﷺ : « لا عقر في الإسلام »، رواه أبو داود .

وكانت ضحايا الأبقار والأغنام التي تقدم اليوم في بلاد يوربا للموتى الملوك ، كانت في الماضي السحيق ذبائح بشرية اعتقاداً منهم أن يكونوا له خدماً في العالم الآخر .

وذلك لاعتقادهم أن من كان ملكاً في هذا العالم لا بد وأن يكون كذلك في العالم الآخر، فيجب أن يبذل كل غال ونفيس لإقامة الحفلات له إلى أقصى حد .

لأن ذلك هو التشريف النهائي له ، وكانت هذه الحفلات أولاً مقتصرة على الملوك والأثرياء والعظماء ثم امتدت إلى أفراد الناس في كل قبيلة وأسرة لكسب السمعة والشرف لها .

وكان من مات وخلف ابناً أو أخاً فعلى هذا الخلف أن يقيم لجنازته حفلات التشريف النهائي، وكل من مات عنه والداه ولم يسبقهما بالموت فله أن يخرج على قومه وبياهيهم بالفرح والزينة ويطعم الطعام ويسقى الشراب .

وكان الأمر متوقفاً على قدر ثراء الخلف ثم تجاوز ذلك إلى حد المباراة والمنافسة والمغالاة حيث ينفق كل ذى سعة من سعته، أو من تركة الميت الراحل .

ومن كان ذا عسرة فعليه أن يستدين ويرهن للدين كل ما يملك من ديار وعقار حتى يستطيع أن يغسل عن نفسه وأسرته عار العجز عن إقامة التشريف النهائى لميته الراحل، وعار عجزه عن الشكر على أنه خلف والديه ، وإذا استطاع ذلك شمع بأنفه بين أقرانه واختال فى مشيته وطرب ورقص وتغنى، بمدحته المغنون وذبح الذبائح ووزع الأطعمة والأشربة على المدعوين، ومن أجل دعوة الأقباط والأداني إلى تشييع الجنازة ابتكر المسيحيون ادخار موتاهم فى المستشفى ثلاثة أيام أو أسبوعاً ليتم الاستعداد الكامل لتلك المهازل .

ولما بلغ الأمر إلى هذا الحد سقط فى أيدي العلماء الذين كانوا يبيحون الاجتماع للدعاء يوم السابع فكفوا عن عمل ذلك .  
وشر ما فى البدعة أنها تنتشر بسرعة حتى إنه بدأت مثل هذه العادة تجتاز حدود بلاد يوربا إلى بلاد هوسا ، حيث قرأت أخيراً للدكتور على أبى بكر فى كتابه ( الثقافة العربية فى نيجيريا ) أنه جرت مناظرات ومناقشات وردود بين علماء مدينة كانو حول الموضوع، ونورد شيئاً منها هنا مع الإيجاز :

يقول الشيخ آدم بن عبد الرحمن السيوطى من علماء حارة مادابو وهو يتزعم جناح إباحة الاجتماع للدعاء، ويقول فى كتاب أسماه حجج علماء مادابو قال: أما الدعاء للميت يوم ثلثه وسابعه وغير ذلك باجتماع الفقراء والمساكين فله برهان ودليل وهو ما فى شرح النفراوى فى باب ما يفعل بالمحتضر ما نصه: وأما ما يصنع أقارب الميت من الطعام وجمع الناس عليه فإن كان لقراءة القرآن ونحوها مما يرجى نفعه للميت فلا بأس به، وأما لغير ذلك فيكره.

ثم قال المؤلف: فالطعام والفلوس حينئذ سواء إذ المراد إدخال السرور على قلوب الفقراء والمساكين، ثم رأيت فى تنبيه المغتربين ما نصه: وكان سفيان الثورى يقول: إن الميت يفتتن فى قبره سبعة أيام، ولذلك استحبوا التصدق عنه تلك المدة مساعدة له حتى يلقن حجته.

هذا ما يحتج به علماء كانوا الذين يبيحون الأمر، وقد حررنا فيما مضى جميع ذلك من أساسه.

فانحاز طائفة من علماء كانوا إلى هذا الرأى وأيدوه وأثنوا

عليه حتى قرظوا كتابه ذلك بقصائد أوردتها الدكتور على أبو بكر في كتابه .

أما الذين قاموا بالرد عليه فهم كثيرون منهم الشيخ محمد الثانى بن الحسن الكافنغى، فى كتاب سماه الأدلة السنية فى الرد على الطائفة البدعية، وخلاصة رده فى ثلاث نقاط :

أحدها : عدم جواز تعيين يوم واحد للتصدق للميت .

ثانيها : ألا يخرج شىء من تركة الميت غير مؤن تجهيزه ودفنه وقضاء دينه الذى عليه إن كان عليه دين .

وأنه لا بأس بالتصدق له بالشىء اليسير من ماله إذا وصى به فيما دون الثلث ثم يذهب ما بقى للورثة .

ثالثها : عدم جواز إقامة النساء مآتم هى أشبه شىء بالحفلات فى سابع يوم الوفاة وغير ذلك لما يترتب عليه من مفسدة وانحراف<sup>(١)</sup> .

ويقول الشيخ محمود بن الحسين فى أبيات :

(١) ص ٣١٤ على أبو بكر فى الثقافة العربية بنيجيريا .

تصدق يا أخى للميت سرا      بمالك إن تكن نفعا تروم  
ولا تقرب إذا لم يوص ميت      من المتروك شيئاً فالعليم  
نهى عن أكل أموال اليتامى      وفى هذا أتى زجر عظيم  
تصدق يا أخى فى أى يوم      تريد تصدقاً دع من يهيم  
يوقتها لثالث يوم موت      وسابعه وذا غلط ذميم

جزى الله المنافحين عن الإسلام فى كل مكان وزمان خير

الجزاء .

\* \* \*

### رثاء الميت ليس من النياحة

التأبين والندبة والرثاء ليس من دعاوى الجاهلية المقبوتة لأنها كالثناء والدعاء للميت، عن أنس قال : « مروا بجنائز فأتوا عليها خيراً فقال النبي ﷺ وجبت ، ثم مروا بأخرى فأتوا عليها شراً، فقال النبي ﷺ وجبت، قال عمر: ما وجبت؟ قال: هذا أثنتم عليه خيراً فوجبت له الجنة وهذا أثنتم عليه شراً فوجبت له النار، أنتم شهداء الله فى الأرض » متفق عليه .

أما التأبين فهو الثناء على المرء بعد موته .

ولما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى أقبل أبو بكر رضى الله عنه من بستانه بالسبح (ضاحية بالمدينة) ودخل عليه وكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى وقال: بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا، وقال عمر رضى الله عنه مثل ذلك.

وأما الندبة فقد ندبته السيدة فاطمة بقولها:

«يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه،  
يا أبتاه إلى جبريل نعاها» رواه البخارى.

أما الرثاء فهو الثناء شعراً فقد رثته السيدة صفية بنت عبد المطلب:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا	و كنت بنا برأ ولم تك جافيا
و كنت رحيماً هادياً ومعلماً	ليك عليك اليوم من كان باكيا
فدى لرسول الله أمى وخالتى	وعمى وخالى ثم نفسى وماليا
ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها	لكان رسول الله حيا وباقيا
ولكنها تفنى ويفنى نعيمها	وتبقى المعاصى والذنوب كما هيا
ولو أن رب الناس أبقى نبينا	سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحية	وأدخلت جنات من العدن راضيا

روى محمد بن عمر الواقدي عن رجاله، قال أبو بكر

الصديق يرثي رسول الله ﷺ :

يا عين فابكي ولا تسأمي      وحق البكاء على السيد  
على خير خندف عند البلا      ء أمسى يغيب في الملحد  
فصلى المليك ولي العباد      ورب البلاد على أحمد  
فكيف الحياة لفقد الحبيب      وزين المعاشر في المشهد  
فليت الممات لنا كلنا      وكنا جميعاً مع المهتدى

وإلى هنا ينتهي ما أردنا بيانه، مما يجوز وما لا يجوز من

التقاليد المشفوعة بالجنائز.

\* \* \*

## الأصل الرابع من أصول الجاهلية الاستسقاء بالنجوم والأنواء

كانت العرب في الجاهلية تنسب الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط والطارق من الكواكب المتفاعلة بين منازل القمر وبروج الشمس، على أنها من المؤثرات بطبيعتها والفاعلات لهذه التغييرات الجوية لا على أنها مسخرات بأمر الله .

لهذا جاء الإسلام بكفر من ينسب ذلك إلى الكواكب ولم ينسبها إلى الخالق المسخر المدبر المنعم .

« جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ، صلى بالناس صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل عليهم فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال ربكم أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر. فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكوكب . وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بى ومؤمن بالكوكب » .

وإنما يكفر من ينسب الأمطار والرياح إلى الكواكب، لأنه لم

ينسب النعمة إلى المنعم الحقيقي ولم يحمده على تلك النعمة .  
وتلك عادة جاهلية كفرية .

أما إذا كانت النسبة جارية على قانون السببية فلا بأس  
بذلك؛ فإن الله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها كما ربط الشبع  
بالأكل، والرى بالشرب، والولادة بالنكاح . وهلم جرا .  
وإنما ينهى الإسلام عن أمرين :

**أحدهما :** إثبات التأثير لتلك الأشياء بطبعها وعدم  
الاعتقاد بأنها مسخرة بإذن خالقها .

**وثانيهما :** إثبات التأثير لما لا تأثير له على كل حال من  
الحقيقة والمجاز .

وينبثق من هذا الموضوع ثلاثة مباحث هامة :

**المبحث الأول :** في أوضاع الكواكب والأجرام السماوية  
ذاتها .

**المبحث الثاني :** في تأثير هذه الكواكب على الأجزاء  
والأجسام مطلقاً .

**المبحث الثالث :** في تأثير الكواكب على حياة أفراد الناس .

## المبحث الأول

### فى عالم الفلك الجغرافى

إن الأجرام السماوية على ثلاثة أقسام :

أولها : النيزك أو المذنب وهو المسمى فى القرآن بالشهاب الذى يرمى به الشياطين .

وثانيها : الكواكب السيارة ( أو المجموعة الشمسية ) ويلحق بها ما يسميه القرآن بالنجوم .

وثالثها : الثوابت وهى ما سماه القرآن بالبروج والمنازل .

### ما هى البروج وما هى المنازل ؟

البرج فى اللغة الحصن والقصر العالى .

والبرج فى الاصطلاح الجغرافى طريق الأرض ومدارها حول الشمس فى سيرها السنوى، أو طريق الشمس الظاهرة التى تقطع الفلك فيها فى ( ٣٦٥ يوماً ) ويضع ساعات .

وتطلق البروج على مجموعة من الكواكب التى تظهر فى

صورة حيوان أو نبات من بعيد ويطلق على البرج اسم من أسماء الحيوانات والنباتات والأشياء الشبيهة بتلك الصورة وهي:

الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبله، الميزان، العقرب، القوس، الجدى، الدلو، الحوت.

والسته الأولى من هذه البروج شمال خط الاستواء. والسته الأخيرة جنوب خط الاستواء، وتسير الشمس فى كل برج شهراً ومنها ما يكون ثلاثين يوماً أو واحداً وثلاثين. وترتبط الفصول الأربعة بحلول الشمس فى هذه البروج .

وابتداء الربيع يكون بحلول الشمس فى الحمل والثور والجوزاء، وذلك من الثالث والعشرين من شهر مارس .

وابتداء الصيف يكون بحلول الشمس فى السرطان والأسد والسنبله. ويصادف الثالث والعشرين من يونيو .

وابتداء الخريف بحلول الشمس فى الميزان والعقرب ويصادف ٢٤ من سبتمبر.

وابتداء الشتاء فى الجدى والدلو والحوت ويصادف ٢٣ من ديسمبر ويفعل الله ما يشاء فى تغيير هذه الفصول فى المناطق والبلاد، فلا تكون على شهور ثابتة سواء بسواء فى جميع العالم.

## مبحث تأثير الشمس على الأجواء والأجسام

إن القاعدة العلمية الثابتة على الحس والتجربة قد برهنت على أن الأجرام السماوية القريبة من الأرض هي وحدها التي تؤثر على الأجواء والأجسام الكائنة على الأرض من حيوان ونبات .  
ولقد أورد ابن خلدون كلام بطليموس في المقدمة وقال : إن أثر النيرين في العناصر والفصول والأمزجة لا يجحده أحد ، فالشمس تبدل الفصول والثمار والزررع .

والقمر يؤثر في الرطوبات والماء والفواكه وغيرها ، وذلك لأن الشمس سراج وهاج وطبيعتها حارة ساخنة تجفف الرطوبات وتحرق اليبوسات وتؤثر بحرارتها في الأجواء والأجسام ، وتحدث الضرر البالغ في جسم من يتعرض لها . وذلك لأن الشمس هي القاطرة التي تجر الأرض وسائر المجموعة المسماة بالكواكب السيارة الدائرة حولها .

فتنشأ الفصول الأربعة من أثر اقتراب الأرض منها أو من ابتعادها عنها ، ولا شك أن للفصول الأربعة آثاراً ملموسة على الأرض وسكانها .

## المبحث الثاني

### تأثير القمر على الأجواء والأجسام

والقمر أقرب كوكب يجاور الأرض وأكثر تأثيراً على  
الأجسام .

القمر بارد رطب يحدث الرطوبة في الأجواء والأجسام .  
ويحدث ضرر البرد والزمهرير في جسم كل حيوان يتعرض  
له .

وللقمر أيضاً تأثير على كثير من الأمراض العقلية فيزداد  
تهيجاً كالمصابين بالجنون والصرع عند ظهور الهلال أو البدر في  
كل شهر .

وللقمر أيضاً علاقة قوية بالدورة الدموية التي تعتمدها  
النساء في كل شهر، كما أن الأمراض الجلدية تشتعل في النصف  
الأول من الشهر أثناء زيادة ضوء القمر، وتنقص في النصف الثاني  
عند نقصان الضوء .

وكذلك المد والجزر يحدثان من تجاذب الأرض والقمر فيتحرك ماء البحر متجهاً للقمر حسب قانون الجاذبية العام .

أما منازل القمر فهي مَبِيَّتُهُ في كل ليلة حتى تكمل ثمانياً وعشرين ليلة وكسوراً وتسمى العرب كل منزلة باسم ما يحاذيه القمر من الكواكب التي سميت مجموعها بالبروج ، وأسماء منازل القمر الثمانية والعشرين على قسمين أربعة عشر يمانية وأربعة عشر شامية وهي :

الشرطين، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الزراع، النثرة، الطرفة، الجبهة، الزبرة، الصرفة، العواء، السماك، النفر، الزيانا، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد ذائع، بلع، سعد سعود، سعد الأخبية، الفرع المقدم، الفرع المؤخر، الرشا .

ويذهب بعض العلماء إلى أن منازل القمر غير هذه الأسماء وقال : إن منازل القمر هي المقابلة والتوليد، فالهلال فالتسديس فالتثليث، والتربيع الأول والبدر ثم التثليث والتربيع الثاني والتسديس، فالحاق لقوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مِنْ نَازِلٍ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [يس : ٣٩] .

فمن هذه التغيرات الناتجة من دوران القمر حول الأرض تجاه الشمس يحدث التأثير على الأجواء والأجسام .

\* \* \*

### مبحث تأثير المذنبات والنيازك

أما الكوكب المذنب فهو جرم سماوى يسبح فى الفضاء حول الشمس ولا يقترب منها، وعندما يقترب من الشمس تجذبه بشدة وتضىء وتلمع وراء هذا الجذب ذيولاً من الكهرباء ومن الغازات . ولهذا يسمى كوكباً ذا ذنب .

أما النيزك فجرم صغير يسبح فى الفضاء ولا يقترب من الكواكب التى هى أكبر منها من الكواكب السيارة والأرض، فإذا اقترب من الأرض جذبته بقانون جاذبية الأكبر للأصغر فيما أن ينهزم النيزك ويتناثر غازاتها فى الهواء، وإما أن يسقط على الأرض ويحدث هوة عميقة حيث سقط . وهى آية يريد الله من ورائها أموراً كما أوضحها فى القرآن .

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ [الرعد : ١٣]

ولقد كان أهل الجاهلية يفسرون ذلك تفسيراً خاطئاً، فجاء

الإسلام يصحح لهم ذلك الخطأ بتفسير صحيح من القرآن والحديث وفي القرآن عدة آيات تثبت منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ \* وَحَفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ \* لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ \* دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ \* إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفافات: ٦ - ١٠] .

وجاء في الحديث الذي رواه مسلم قال: بينما النبي ﷺ في نفر من الأنصار إذ رمى نجم فاستنار فقال النبي ﷺ: « ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه قالوا كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم، قال رسول الله ﷺ فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش ماذا قال ربنا، فيخبرونهم ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا وتخطف الشياطين فيرمون فيقذفون إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون» .

## المبحث الثالث

## فى تأثير الكواكب على حياة أفراد الناس

ويتعلق بهذا المبحث علمان أحدهما يسمى بالتنجيم،  
والآخر يسمى بالنجوم .

ويختلف التنجيم عن علم النجوم .

أما علم النجوم: فهو معرفة أوضاع الأجرام السماوية  
وسيرها وتنقلاتها، وسير الشمس والكواكب السيارة حولها،  
وسير البروج وربطها بالشهور والفصول . فهذا علم ثابت يعرف به  
مواقيت الصلاة والصيام والحج والزرع والحصاد وفى القرآن ما يشير  
إلى ذلك من قوله تعالى:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا  
وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ \* وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ  
أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿ [الفرقان : ٦٢ ، ٦٣] ﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ  
ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ ﴿

[يونس : ٥]

فهذا علم النجوم الذى أجمع علماء الإسلام على جواز تعلمه بل على وجوبه لمعرفة عجائب السموات ومعرفة مواقيت الصلاة وجهات القبلة .

أما التنجيم فهو الزعم بأن الأجرام السماوية قريبها وبعيدها صغيرها وكبيرها لها تأثير على حياة الأفراد من الناس كما سبق آنفاً .

ويزعم أهله بأنهم يعرفون حوادث الكائنات بالنظر فى الكواكب وسيرها، وتنقلات الشمس فى بروجها والقمر فى منازلها ويربطون ذلك بموت الملوك والعظماء والأمراء - وولاتهم ، وبتغيير الشؤون السياسية والزراعية والتجارية .

وأول ما يبطل نظرياتهم أنهم ربطوا الأيام السبعة بالكواكب السيارة . يوم كان مبلغ علمهم ينتهى إلى أن الكواكب السيارة سبعة وهى كما يقولون :

زحل شرى مريخه فى شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار  
ولقد أبطل العلم الحديث هذه النظرية وجعل الكواكب  
السيارة تسعا باستثناء الشمس والقمر، لأن القمر تابع للأرض،

وأن الشمس مركز الكواكب المسماة بالمجموعة الشمسية، وحولها عطارد وزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل ونبتون ويورانس وبلوتو، فظهر الحق وبطل ما كانوا يزعمون .

ويقول ابن خلدون : (إن الحدس والتجربة لما بعد النييرين من الكواكب وآثارها ظنى وليس من اليقين فى شىء، لأن قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وإنما تحصل بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب البعيدة طويل الزمن، فيحتاج تكراره إلى آماذ وأحقاب تتقاصر عنها الأعمار كلها لو اجتمعت على تحصيله) .

### الخط فى الرمل :

ومن قبيل التنجيم: الخط فى الرمل، لأنهم يربطون هذا بذلك وينسبونهما إلى الكواكب والبروج وإلى الأيام والشهور، كما يعد من قبيل الكهانة والعرافة وطرق الحصى .

والتحقيق العلمى فى إبطال الخط قائم على عدم ثبوته واستقراره على نتائج ثابتة مستمرة ولو بسط صاحب الخط رمله وخط خطوطه وأخرج أشكاله ثم استنطق تلك الأشكال فى مرات

مختلفة، فإن نتائجها لا تتفق على جواب واحد إلا بالمصادفة، لهذا صار ملتبساً بالكهانة.

وكان بعض العلماء يرونه علماً جائزاً لما رواه مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ قال: « كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك ».

وحاصله على ما ذكر أهل التاريخ أن النبي إدريس عليه السلام - ولعله المسمى هرمس - هو المشار إليه في الحدث، وهو الذى علمه الله ذلك الخط وبه أظهر الله نبوته، إذ تمثل له جبريل على ساحل البحر ذات يوم فبسط الرمل وخط ونظر إلى إدريس، فقال ما اسمك: قال إدريس. قال له أنت نبي وتكتم نبوتك؟ فقال إدريس: من أين لك هذا العلم؟ قال هذا علم الرمل، فقال إدريس: سألتك أن تعلمنى، قال حبا وكرامة، نجتمع هنا كل يوم وأعلمك، فكانا يجتمعان كل يوم حتى أتقنه إدريس، فقال له جبريل يوماً: خط على الملك جبريل أين هو فى هذه الساعة فخط

(١) قال النووى فى شرحه لمسلم (١٧٣/٢)، معناه: أن من وافق خطه فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح، والمقصود: أنه حرام لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة.

إدريس فى الرمل حتى اكتشف أن صاحبه هذا هو جبريل عليه السلام، ثم طلبه فل يجده . فعلم أن الله بعثه إليه ليعلمه هذا العلم وليخبره أنه نبى ، ثم أتى إدريس قومه واجتمع بأكابريهم وقال لهم: قد تعلمت علماً نفيساً فمن كان منكم فى قلبه ضمير فليضمره وأنا أبينه له فأضمر كل منهم فجعل إدريس يحدثهم ، وهم يتعجبون ، ثم سأله أن يعلمهم فعلمهم، وهم الهرامسة تلامذة إدريس .

ولما علم أنهم أتقنوا العلم جيداً جمعهم وأخبرهم أنه خط فى الرمل فظهر له أن الله أرسل نبياً صادقاً وطلب إليهم أن يخط كل واحد لطلبه فخطوا جميعاً، فوافقوا على ذلك ثم أمرهم أن يبحثوا عنه حتى يجدوا أين هو ليؤمنوا به فخطوا حتى قالوا: أنت ذلك النبى فبذلك ظهرت نبوته وآمن به من آمن ، وكفر من كفر، ومن هنا ذهب علم الرمل إلى الكفار وبقي أثره فى الجاهلية وعليه قول النبى : « فمن وافق خطه فذاك » .

ولكن من الصعب أن نعرف من وافق خطه على الصحيح .

## الكهانة

أما الكهانة فهي الإخبار عن الغيب وعن الأسرار وما يحدث في المستقبل . وقد استفاض في البحث عنها العلامة ابن خلدون وقال : (إن الكهانة من خواص النفس الإنسانية المستعدة للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية فيحصل من ذلك لمحة للبشر من صنف الأنبياء، وقرر أنها تحصل للكهان بالفطرة وهذه باقية حتى بين يدي النبوة وبعدها كما حصل لابن صياد في زمن النبي ﷺ والتي تحصل لهم بالاستعانة بالشياطين هي التي بطلت بما وقع من رجمهم بالشهب .

وكان في العرب كهنة كثيرون أشهرهم شق وسطيح ممن يستعينون بالشياطين، وكان العرب يعتمدون على كلامهم ويثقون بأخبارهم .

وأعجب ما وصل إلينا من ذلك أن جماعة من الكهنة أخبروا بمبعث النبي ﷺ وقرب ظهوره منهم سطيح حيث وجه إليه النعمان عبد المسيح فلما أتاه أدركه يحتضر فكلمه فلم يجبه فأنشأ أبياتاً منها :

أصم أيسمع غطريف اليمن يا فاضل الأضغاث أعيت من ومن  
فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه وقال : عبد المسيح، على  
جمل مسيح، أتى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك  
نبي ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذآن،  
رأى إبلاً صحابا تقود خيلا عربا، قد قطعت دجلة، وانتشرت في  
بلادها .

يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة،  
وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس،  
فليس الشام لسطيح . شاما يملك منهم ملوك وملكات، على  
عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت<sup>(١)</sup> .

(١) كان الكهنة يخبرون سائلهم بالكلام المسجوع لأنه أوقع أثراً في  
النفوس، ويغلب عليه التكلف، لذلك نهى عنه النبي ﷺ بقوله:  
«إياكم والسجع في الدعاء». وقضى النبي لأعرابي في دية الجنين بغرة  
عبد أو أمة فقال الرجل: «أدى من لا شرب ولا أكل ولا صاح  
ولا استهل ومثل ذلك يطل» فقال النبي ﷺ: «أسجعا كسجع  
الكهان؟!» وذهب الأدباء إلى أن علة التحريم التكلف المقرون  
بالكهانة، وإذا زالت العلة زال التحريم؛ وفي القرآن والحديث عدد من  
السجع المنسجم المطاوع.

ثم قضى سطیح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته فأخبر كسرى بما سمع<sup>(١)</sup>.

ومنها أن هند بنت عتبة بن ربيعة كانت تحت رجل اسمه الفاكه، وكان له بيت خاص للضيافة يأوى إليه الناس من غير إذن، وصادف أن الفاكه اضطلع مع زوجته هند في دار الضيافة في يوم لم يأو إليه أحد، ثم نهض الفاكه من جوار زوجته وخرج لقضاء حاجة له، ثم إن رجلاً ممن اعتادوا ارتياد البيت أقبل كعادته ودخله فلما أبصر هنداً رجع مدبراً فأبصره الفاكه فداخله الشك في زوجه، وأقبل عليها فركضها برجله على غضب الغيرة فاستيقظت من نومها فقال لها : من ذا الذى خرج من عندك؟ فقالت لم أر أحداً، وهى فى دهشة نومها، فقال لها: الحقى بأهلك، وفشا الحديث حول هذا الحادث بين العرب، وتكلم عتبة ابن ربيعة والد هند مع زوجها الفاكه، وقال له : إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم، فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن فخرجنا فى وفد من قومهما إلى اليمن فلما قاربوا موضع الكاهن قالت هند

(١) البداية والنهاية ٢ / ٢٦٩ راجع المقدمة السادسة من ابن خلدون.

لأبيها: إنكم تأتون بشرا يصيب ويخطئ ولا آمنه أن يسمنى  
 ميسما يكون على سبة فقال: أبوها سأختبره لك فأدخل فى  
 إحليل فرسه حبة حنطة فلما دخلوا على الكاهن قال عتبة: إنا قد  
 جئناك فى أمر، وقد خبأت لك خبأً أختبرك به، فانظر ما هو؟ فقال  
 الكاهن: تمرة فى كمرة، فقال عتبة: أريد أبين من هذا؟ فقال  
 حبة بر فى إحليل مهر، فقال له عتبة: انظر فى أمر هؤلاء  
 النسوة، فجعل الكاهن يدنو من كل منهن فيضرب بيده على  
 كتفها ويقول: انهضى، حتى انتهى إلى هند فقال لها:  
 انهضى غير وسحاء ولا زانية ولتلدن ملكا اسمه معاوية  
 فاغتبط الفاكه لذلك وقام إليها فرحاً لزعمه أنه أب ذلك الملك،  
 فأخذ بيد زوجته ولكنها جذبتها منه بكبرياء وأنفة، وقالت: إليك  
 عنى فوالله لأحرصن على أن يكون من غيرك فطلقت منه، وكان  
 ما كان من تزوجها من أبى سفيان بن حرب فولدت له معاوية  
 وصدق تنبؤ الكاهن بولاية معاوية الخلافة وتأسيسه الدولة  
 الأموية<sup>(١)</sup>.

(١) وإن صح هذا الخبر - ولا أظنه يصح - فقد ورد فيه ما يدل على أن  
 الناس فى الجاهلية كانوا يشكون فى صحة أخبار الكاهن =

وقد جاء فى الحديث من أخبار ابن صياد فيما رواه أبو داود: « أن النبى مر بابن صياد فى نفر من أصحابه وفيهم عمر بن الخطاب وهو يلعب مع الغلمان عند أطم بنى مغالة، وهو غلام فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ظهره بيده، ثم قال أتشهد أنى رسول الله؟ قال فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأميين، ثم قال ابن صياد للنبى ﷺ: أتشهد أنى رسول الله فقال له النبى ﷺ آمنت بالله ورسله، ثم قال له النبى: ما يأتيك قال يأتينى صادق وكاذب. فقال له النبى ﷺ: خلط عليك الأمر، ثم قال رسول الله ﷺ إني قد خبأت لك خبيئة ».

وخبأ له ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان : ١٠] قال ابن صياد هو الدخ فقال رسول الله ﷺ: «إخسا فلن تعدو قدرك».

فقال عمر: يا رسول الله إيدن لى فأضرب عنقه، فقال: إن

---

= فيما يخبرهم ، لذلك ارتابت هند واتهمت الكاهن فيما سيقول قبل وصولها إليه « إنكم تأتون بشرا يصيب ويخطأ » .  
ويقول زهير - الشاعر الجاهلى :-  
لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

يكنه فلن تسلط عليه، يعنى الدجال، وإن لم يكنه فلا خير لك فى قتله .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سأل ناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال « ليس بشيء »، فقالوا يا رسول الله إنهم يحدثون أحيانا بشيء فيكون حقاً؟ فقال رسول الله ﷺ : تلك الكلمة من الحق يحفظها الجنى فيقرها فى أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة » (متفق عليه) .

\* \* \*

### الإظهار على الغيب ليس تكهنًا

قال تعالى :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [ الأنعام : ٥٩ ]

وجاء فى تفسير مفاتيح الغيب آية أخرى هى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [ لقمان : ٣٤ ] .

بهذه النصوص ختم الله على أفواه من يدعى علم المغيبات

فيخبر الناس بها قبل وقوعها ، غير أن الله عز وجل قد استثنى من الناس من قد يظهرهم على الغيب في قوله : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا \* إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾

[الجن : ٢٦ ، ٢٧]

فاتفق المفسرون على أن كل ما جاز معجزة للرسول جاز كرامة للولي .

ولكنهم اشترطوا أن يكون الإظهار على الغيب موهبة لا تكسبا ولا تصنعاً ، كما أن على من كشف الله له الغيب أن لا يتظاهر به ولا يعلنه على الناس فقالوا :

ولا بد من كتم وعدم إذاعة ومن لا يراعى الشر لا يك واصلاً قال المحققون إن الغيب قسمان :

قسم استأثر الله به فلا يطلع عليه أحد ، فسموه غيب الغيب أو الغيب المطلق .

وقسم يأذن الله بإظهاره لمن يشاء من عباده بدليل الاستثناء .

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فسموا هذا بغيب الشهادة .

فذلك ما يكون بدلائل وقرائن ومقدمات يقينية ثابتة بتجارب عملية متكررة كالعلم بأن الشمس تطلع غداً صباحاً وتغرب مساءً .

وأن الليل والنهار يتعاقبان . وكالعلم بمواعيد الفصول الأربعة، أو العلم بوقوع الكسوف والخسوف قبل وقوعه . وكل ما كان من هذا القبيل فلا يعد غيباً مطلقاً بل هو غيب عند من لا يعرفه وشهادة عند من يعرفه كمن اطلع على شجرة عالية أو برج عال وشاهد أشياء لم يشاهدها من على الأرض البسيطة ولهذا قيل :

لا تكن منكرًا فثم أمور      لطوال الرجال لا للقصار  
فإذا لم تر الهلال فسلم      لأناس رأوه بالأبصار

أما طرق الإظهار على الغيب :

فأولها : الكشف الباطني بالفطرة أو بالرياضة فأهل هذا الكشف هم المسمون بالمحدثين الذين يخبرون بالغيب، فيقع صحيحاً وعليه قال رسول الله ﷺ « كان فيمن قبلكم محدثون وإن يكن من أمتي فعمر » . رواه البخارى .

ذلك لأن عمر رضى الله عنه يقول أقوالاً ويرى آراءً فينزل القرآن وفاقاً لما يقول، حتى روى عنه قوله: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب وفي الأسرى وفي مقام إبراهيم.

وثانيها: الرؤيا المناسبة فإنها تصح من كل إنسان ذكر وأنثى بر وفاجر كما صحت من الفراعنة والأكاسرة والأباطرة.

يقول ابن خلدون: إن حقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحّة من صور الواقعات عندما تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية بارتفاع حجاب الحواس بالنوم فترتفع النفس إلى عالم الحق فتدرك بعض الحقائق.

ولقد عبر الشارع عن الرؤيا بأنها من المبشرات وبأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وكان الوحي يبتدئ بالرؤيا.

روى البخارى عن النبى ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا ما هي يا رسول الله قال: الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له وهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

قال الملحدون بإبطال الرؤيا وقالوا: إن النائم يرى في منامه ما يغلب عليه من الطبائع الأربع.

فإن غلبت عليه الصفراء رأى النار والمصابيح والدم  
والمعصفرات .

وإن غلبت عليه السوداء رأى الأحداث والسواد والأهوال  
والأفزع .

وإن غلب عليه البلغم رأى المياه والأنهار والأمواج .

وإن غلب عليه الدم رأى الشراب والرياحين والمعازف  
والمزامير .

وهذا الذى قالوه نوع من أنواع الرؤيا وليست الرؤيا منحصرة  
فيه ، ولقد دلت التجارب على ما حققه الشارع من أن الرؤيا ثلاثة  
أقسام :

منها ما يكون من حديث النفس والوساوس التى نام عليها  
النائم ، فذلك ما يكون فى أول النوم وأول الليل .

ومنهما ما يكون من غلبة الطبائع كما ذكروا ، وتلك  
أضغاث الأحلام .

ومنهما ما يكون من الله فتلك الرؤيا الصالحة التى تأتى  
واضحة أو على طريق الأضداد فيحتاج إلى التأويل والتفسير .

ومن قبيل الرؤيا اختلاج الأعضاء وذلك بحركة غير إرادية تحدث في عضو من الأعضاء وتدوم لحظة أو ساعة أو ساعات .

ويذهب بعض الحكماء إلى أن الاختلاج ليس إلا مجرد احتقان البخارات في داخل الجسم وطلبها المنفذ أو مجرد تغير الدم مثل ما قالوا في الرؤيا المنامية وربما تبعهم في ذلك بعض العلماء الذين قد تحجروا واسعاً من صنع الله الذي أتقن كل شيء .  
والعارفون بالحقائق يعرفون أن الاختلاج قد يكون مما ذكروا فعلاً، ولكنه يكون أيضاً من صحيح البدن وسليم الجسم دليلاً على إخباره بما يحدث له في المستقبل فإنه من الآثار النفسية والمواهب الروحانية التي يرزقها الله من يشاء من عباده كالرؤيا .

ولا ينكرها إلا من لم يذوقها أو لم يكن يلاحظها ومن جهل شيئاً عاداه قال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس : ٣٩] .

ولقد وضع المتقدمون تأويلاً لاختلاج الأعضاء كما وضعوا للرؤيا المنامية تأويلاً فمن صح عنده فليأخذه علماً وحصافة ومن لم يصح عنده فليتركه جهلاً وخرافة .

على أن الاختلاف من قبيل الفراسة ، والفراسة علم وهبى لا يتيسر أو لا يقع لكثير من الناس .

وقد ذكر الراغب فى كتاب « الذريعة إلى مكارم الشريعة » أقسام الفراسة وذكر أنها ضربان . ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه وهو ضرب من الإلهام<sup>(١)</sup> ، وإليه أشار الحديث « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »<sup>(٢)</sup> رواه الترمذى . وصاحبه هو المحدث الذى عناه النبى فى قوله « كان فيمن قبلكم محدثون وإن يكن فى هذه الأمة محدث فهو عمر » رواه البخارى .

وضرب يكون بضاعة متعلمة وهى معرفة ما بين الألوان والأشكال والأخلاق والأفعال واستطرد يقول : ومن الفراسة علم الرؤيا ، وقد عظم الله أمرها فى جميع الكتب المنزلة .

ومن الفراسة الزكائة وهى معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب من التوهم . والقيافة ، ضرب من الزكائة وهى ضربان :

(١) لم يذكر الراغب الاختلاج ولكنه يندرج تحت الضرب الأول الذى هو الإلهام .

(٢) قال ابن الجوزى موضوع وقال غيره ضعيف .

أحدهما : تتبع أثر الأقدام والاستدلال بها على السالكين .

ثانيهما : الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله على نسبه وجنسه واختص العرب بعلم القيافة كما اختص بها بنو مدلج منهم .

وفى الموطأ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يلحق أولاد الجاهلية بمن ادعاهم فى الإسلام ، فأتى رجلان كلاهما يدعى ولد امرأة فدعا عمر بن الخطاب قائفاً فنظر إليهما القائف فقال لقد اشتركا فيه فضربه عمر بالدرة .

ثم دعا المرأة فقال : أخبريني خبرك فقالت : كان هذا لأحد الرجلين يأتيني - وهى فى إبل لأهلها - فلا يفارقها حتى يظن وتظن أنه قد استمر بها حبل ، ثم انصرف عنها فأهريقته عليه دماء ثم خلف عليها هذا - تعنى الآخر . فلا أدري من أيهما هو؟ قال : فكبر القائف فقال عمر للغلام : وال أيهما شئت .

وقد عمل عمر بقول القائف لما حدث على عهد رسول الله ﷺ فيما روت عائشة رضى الله عنها « أن مجزراً المدلجى رأى زيدا وأسامة قد غطيا رؤوسهما بقيطفة وبدت أقدامهما ، فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض » رواه أبو داود .

## تعاطى السحر من رواسب الجاهلية

السحر : هو التأثير فى القلوب بالمحبة والكراهة أو إلقاء الخير والشر فيها، أو التأثير فى الأبدان بالألم والسقم ، أو نحو ذلك .

والسحر قسمان : حقيقى وخيالى .

أما الحقيقى : فذلك سر من الأسرار وليس سحراً ، مثال ذلك سحر البيان لقول الرسول ﷺ : « إن من البيان لسحراً » .

أو نحو السر الذى أودعه الله فى خاصية بعض الأشجار والأحجار كتأثير المغناطيس على الحديد، أو الحرير الصخرى الذى إذا وضع عليه النار لم يحترق . ومثال ذلك كثير مما كان مكتوماً عند القدماء وصار اليوم علماً تجريبياً وهو أصل الكيمياء الحديثة .

أما السحر الخيالى ، فهو أيضاً قسمان :

أولهما سحر أصحاب النفوس القوية : كأصحاب العين السوء التى تؤثر فى الأشخاص وتحدث الضرر فى الأجسام ، وقال المحققون : إنها تنبعث منها جواهر لطيفة غير مرئية فتتخلل المسام من البدن فيخلق الله الضرر عندها ، وهى قوة فطرية جبلية من

صاحبها، لهذا جاء في الحديث : « العين حق، ولو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين » متفق عليه .

وحديث « العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر » أخرجه السيوطي في الجامع الصغير .

ويلحق بهؤلاء أصحاب النفوس الضعيفة الذين يستعينون بالرياضات وجمع الأضداد وخواص الأشياء ليتقوا بها على إضرار الغير، وإلى هؤلاء يشير القرآن بقوله : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

ويلحق بذلك ما جاء في القرآن على لسان النبي يعقوب من قوله : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَاَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٧] .

وقد اختلف العلماء في إثبات حقيقة السحر الخيالي وعدم

إثباتها .

اعتمد الذين نفوا عنه الحقيقة على قوله تعالى في قصة

سحرة فرعون بقوله :

﴿ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾

[ طه : ٦٦ ]

واعتمد الذين أثبتوا حقيقته على ما سبق من آية سحرة بابل، وعلى ما ورد في الصحيحين من أن لبيدًا اليهودي سحر رسول الله ﷺ، وتأثر به حتى نزلت عليه المعوذتان على أحد قولي العلماء في ذلك .

يقول ابن خلدون : « إن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمننا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا أو معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا، وما لا يهمننا في شيء منهما، فإن كان فيه ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات، لأن أثرهما واحد كالتنجيم الذي فيه نوع ضرر بالاعتقاد والتأثير فتفسد العقيدة الإيمانية برد الأمور إلى غير الله، فيكون حينئذ ذلك الفعل محظوراً على نسبته في الضرر، وإن لم يكن منه علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من أن تركه تقرب إلى الله » .

قلت : لا خلاف بين أهل التحقيق فى أن للسحر حقيقة، وإنما يبطلها الله بقوة الإيمان والإخلاص من العبد الصالح<sup>(١)</sup>.

ولقد سجل التاريخ الإسلامى فى غرب إفريقيا أن الدعاة الأولين فيها إنما نجحوا فى نشر الدعوة الإسلامية بغلبهم على سحرة إفريقيا الذين كان العوام يعتقدون أن لهم أسراراً ملكوتية يسيطرون بها على الأشخاص والأشياء.

فلما خبت نارهم وانكسرت شوكتهم بروحانية الدعاة

(١) لقد عاب بعض المستغربين على ابن خلدون فى تعرضه لأبحاث الكهانة والنجامة والسحر ، فرد عليهم الأستاذ البحاث طاع الحصرى فى تعليقه على المقدمة تحت عنوان « بين التاريخ والمؤرخين » ذكر أسماء علماء اليونان والرومان والإفرنج من أيام هيرودت أبى التاريخ، حتى القرن السابع عشر فى أوربا من الذين بحثوا فى تلك الخرافات وأثبتوا صحتها ولم ينقص من مكانتهم عند أهل أوربا فى علوم التاريخ والاجتماع والفلسفة.

ولئن كانت أوربا لم تتخلص من شرور السحرة إلا بعد أن أشعلت عليهم نار حرب قاسية لا هوادة فيها ولا رحمة ، حتى تم إحراق مليون ساحر فى قرن واحد من بداية السادس عشر حتى نهاية السابع عشر، وكانت المحاكمات وتنفيذ العقوبات تتم باسم الملوك والبابوات فإن الإسلام استطاع أن يخلص المسلمين من شرور السحرة بقوة الإيمان واليقين ، كما قضى سيدنا موسى على سحرة فرعون ، وكذلك قضى دعاة الإسلام فى غرب أفريقيا على سحرة البلاد فكان ذلك من أقوى أسباب انتشار الإسلام فيها وبقائها إلى اليوم.

المخلصين الذين أيدهم الله بالكرامات على قدر ما استقاموا على طريقة الحق وعلم الناس أن القوة لله جميعاً ودخلوا في دين الله أفواجاً ملوكاً ورعايا .

وإنما تم ذلك على يد علمائنا الأولين باستقامتهم وثقتهم  
بربهم .

وفى ذلك تحقيق لما ورد فى الحديث القدسى الذى رواه الشيخان : « ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ولئن سألتنى لأعطينه » .

\* \* \*

obeikandi.com